تماثيل الحلوى

كان من عادة الفاطميين فى مصر الإكثار من عمل هذه التماثيل فى أسمطة المواسم والأعياد ، واتخاذها على أشكال شتى . قال ناصر خسرو فى رحلته « سفرنامه » : إنه لما توصل إلى دخول الإيوان المقام به سماط عيد الفطر بمصر سنة ٤٤٠ شاهد عليه تمثال شجرة من السكر تشبه شجر الأترج بأغصانها وأوراقها وثمارها[٣١٣] .

وفى « خطط المقريزى » فى ذكر سماط عيد الفطر نقلا عن « التاريخ الكبير » للمسبحى ما نصه : « وفى آخر يوم منه — يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة — حمل يانس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل ، وأطباقاً فيها تماثيل حلوى ، وحمل أيضاً على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر »[٣١٤] .

وذكر المقريزى أيضاً فى « خططه » فى كلامه على سوق الحلاويين وما كان يصنع به ما نصه : « ولقد رأيت مرة طبقاً فيه نقل وعدة شقاف من خزف أحمر فى بعضها لبن وفى بعضها أنواع الأجبان ، وفيما بين الشقاف الخيار والموز ، وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت أيضاً لهم عدة أعمال من هذا النوع ، يحير الناظر حسنها ، وكان هذا السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظراً ؛ فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق واحدتها علاقة ترفع بخيوط على الحوانيت ؛ فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل ، تشترى للأطفال ، فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلئ أسواق البلدين مصر والقاهرة وأرباضهما من هذا الصنف ، وكذلك يعمل فى موسم نصف شعبان ، وقد بقى من ذلك إلى اليوم بقية غير طائلة »[٣١٥] .

وفى « طبقات الشافعية » للسبكى فى ترجمة أبى على الروذبارى المتوفى سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وكان من أئمة الصوفية ، أنه اشترى مرة أحمالا من السكر

الأبيض ، ودعا جماعة من صناع الحلوى ، فعملوا له من السكر جداراً عليه شرفات ومحاريب على أعمدة ، ونقشوها كلها من السكر ، ثم دعا الصوفية ، فهدموها وكسروها وانتهبوها »[٣١٦] .

وقال ابن جبير فى « رحلته » فى وصف أسواق مكة : « وأما الحلوى فتُصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى ، يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة ، وفى الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان تتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها ، لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية ، وجُليت على منصّات كأنها العرائس ، ونضدت بسائر أنواعها المنضّدة الملوّنة ، فتلوح كأنها الأزاهر حسناً ، فتقيد الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار »[٣١٧] .

وقال المتنبى وقد أهدى إليه بعضهم تماثيل سمك من سكر ولوز تسبح فى لجة عسل :

أهلا وسهلا بما بعثت به ... إيهاً أبا قاسم وبالرسل
هدية ما رأيت مُهْدِيَها ... إلا رأيت العباد فى رجل
أقلّ ما فى أقلها سمك ... يلعب فى بركة من العسل[٣١٨]

وقال إبراهيم المعمار المعروف بابن غلام النورى فى تمثال فيل من الحلوى :

قد صوروا الفيل الكبير حلاوة ... وله طُلاوهْ
ما قولكم فى معشر ... الفيل عندهم حلاوه[٣١٩]

وفى « تاريخ ابن إياس » أن الأمراء لما قبضوا على الأمير قوصون ، وأرسلوه إلى سجن الإسكندرية لاتهامه بقتل المنصور أبى بكر بن محمد بن قلاوون بعد خلعه سنة ٧٤٢ عمد أهل مصر إلى تصوير صورة قوصون فى العلاليق وهو مسمر ، فقال المعمار فى ذلك :

شخص قوصون رأينا ... فى العلاليق مسمَّر
فعجبنا منه لما ... جاء فى التسمير سكَّر[٣٢٠]

ورأينا فى كتاب « كنز الفوائد فى تنويع الموائد »[٣٢١] أن هذه التماثيل تصنع عادة

من نوع من الحلوى اسمه المَشَاش ، وخلاصة ما ذكره عنه أنه جلاّب يعقد على النار ويضرب بالمهراس حتى يفور فيقلب على رخامة ، ويترك ساعة ، ثم يلون بالأصباغ ، قال : « وهـذا هو الذى تعمل منه جميع التماثيل المختلفة » . قلنا وهو لفظ فارسى مفتوح الأول يطلق عند الفرس على حلوى تعقد من العسل . وفى كتاب « صفة الأطعمة »(٣٢٢) وصف أنواع من الحلوى تعقد لتصنع منها التماثيل لا يتسع المجال لذكرها .

ومن أغرب ما يذكر عن العرب فى الجاهلية ، ويشبه تماثيل الحلوى ، ما نقله الحافظ ابن حجر فى باب التصاوير من « فتح البارى » عن القرطبى ، قال : « إن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شىء ، حتى إن بعضهم عمل صنَمَهُ من عجوة ، ثم جاع فأكله » . ومثله ما ذكره البيرونى فى « الآثار الباقية » عن صنم من حيس* اتخذه بنو حنيفة فى الجاهلية قبل مُسَيْلِمة فعبدوه دهراً ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال فى ذلك رجل من بنى تميم :

أكلت ربَّها حنيفةُ من جوعٍ قديم بها ومن إعواز

وقال آخر :

أكلت حنيفة ربّها زمن التقحّم والمجاعه†
لم يحذروا من ربّهم سوء العواقب والتباعه(٣٢٣)

ويلحق بذلك التماثيل التى كانوا يصنعونها من العجين ويسمونها بالجعاجر . قال فى « القاموس » : « الجعاجر ما يتخذ من العجين كالتماثيل ، فيجعلونه فى الرُّبّ إذا طبخوه ، فيأكلونه ، الواحدة جُعْجُرَّة كطرطبّة » . ومثلها مدائن العجين التى كانت تعمل فى الأنداس يوم النيروز ، قال صاحب « نفح الطيب » : « وقال أبو عمران موسى الطريانىّ لما دخل يوم نيروز إلى بعض الأكابر ، وعادتهم أن يصنعوا فى مثل هذا اليوم مدائن من العجين . لها صور مستحسنة ، فنظر إلى صورة مدينـــة فأعجبته ، فقال له صاحب المجلس صفها وخذها :

(*) الحيس بفتح فسكون : طعام يعمل من التمر والسمن والأقط أو الدقيق بدل الأقط .
(†) أى زمن الشدة

مدينـــــــة مُسَوَّرهْ تحار فيهـا السَّحَرَهْ
لم تبنهـــا إلا يَدَا عذراء أو مُخَــدَّرهْ
بدت عروساً تجتلى من دَرْمَكٍ مزعفره*
وما لهـــا مفاتح إلا البنـان العشره »(٣٣٤)

ووقفنا فى كتاب « المعيار »(٣٣٥) ، وهو مجموع فتاوى مالكية على سؤال يدل على أنهم كانوا يصنعون بالمغرب صور أيدٍ من الشمع والحلوى والعجين ، ونصه : « وسئل الأستاذ أبو إسحاق الشاطبى عن الأيدى التى يصنعها الشماعون من الشمع والفانِد ، وما يصنع منها من العجين ، هل ذلك جائز أم داخل تحت الوعيد الذى ورد فى المصورين ؟ » وقد أجاب بالجواز ؛ لأنها جزء من صورة لا صورة كاملة . وقوله الفاند هو نوع من الحلوى ، غير أنه ورد فى الكتب اللغوية والتاريخية بلفظ الفانيد بالمثناة التحتية بعد النون وهو معرب پانيد بالفارسية ، ويظهر أن العلماء بالمغرب رأوا حذف الياء ليلحقوه بالأبنية العربية ، لفقد فاعيل من كلام العرب ، وليس هذا الإلحاق بشرط متبع فى كل ما عرّب ، وأما عوامهم فقد سمعناه ملفوظاً بالياء من النازلين منهم بمصر .

(*) الدرمك بوزن جعفر : دقيق الحوّارى ، أى الدقيق الأبيض اللباب .